أولاً : العصر الحجري القديم .. Paleolithic.

يشغل المدة من حوالي ٢ مليون ونصف المليون سنة من الآن، ويمكن تقسيمه إلى ثلاثة عصور هي :

١ – العصر الحجري القديم الأدنى. . Lower Paleolithic يؤرخ من حوالي مليونين ونصف المليون حتى ١٠٠,٠٠٠ سنة. وفي المدة من حوالي ٥٠٠,٠٠٠- ١٠٠,٠٠٠ ق.م، عاشت أقدم ثلاثة أنواع من البشر في بلاد الرافدين. ويعتبر موقع المصنع على نهر الفرات في منطقة حديثة أقدم موقع يقدم أدلة وجود عن الوجود البشري في بلاد الرافدين.

٢- العصر الحجري القديم الأوسط...Middle Paleolithic . يؤرخ من حوالي ١٠٠,٠٠٠- ٤٠,٠٠٠ سنة من الآن. وانتشرت فيه المواقع عبر أنحاء بلاد الرافدين وإن كانت المنقبة منها قليلة مثل كهف شانيدار وموقع هزار مرد في شمال شرق العراق. وفيها ظهر إنسان النياندرتال في حدود ٦٠,٠٠٠ سنة من الآن.

٣ –العصر الحجري القديم الأعلى.Upper Paleolithic . يؤرخ من حوالي ٤٠,٠٠٠- ١٠,٠٠٠ سنة من الآن. ويعتبر موقع بردا بلكا في شمال من أول المواقع التي تسجل أقدم مراحل سكنى الإنسان في شمال بلاد الرافدين من هذا العصر، فضلاً عن مواقع أخرى منها الطبقة س و د في كهف شانيداروكاوري خان في سهل جمجمال، وبالي كورا.

ثانياً : العصر الحجري الوسيط ...Mesolithic

.وهو مرحلة إنتقالية بين العصر الحجري القديم والعصر الحجري الحديث، ويطلق عليه الآن أسم (العصر الحجري الانتقالي Epipalaeolithic). ويؤرخ من حوالي٢٠,٠٠٠ إلى ٩,٠٠٠ ق.م. وفيه ظهرت طلائع المزارعين وبصحبتهم قطعان الحيوانات المستأنسة.

ويعرف في بلاد وادي الرافدين بأسم العصر (الزرزي) ووجدت آثاره في مجموعة من المخيمات أو ملاجيء الصيد والجمع مثل موقع زرزي وبالي

كورا جبال زاكروس، كما عرف هذا العصر بأسم العصر (الميكروليثي) لانتشار آلاته الحجرية الدقيقة.

عاش الإنسان في العصور الحجرية القديمة في الغالب في العراء وأستغل الكهوف الطبيعية والملاجيء الصخرية للإحتماء بها من قسوة البيئة الطبيعية والحيوانات المفترسة. فالكهف هو مأوى طبيعي حيث لا توجد جدران ولا أي شكل من أشكال البناء.

ثالثاً : العصر الحجري الحديث ...Neolithic

يؤرخ من حوالي٩٠٠٠ ق.م. وفيه ذهبت المجتمعات البشرية في الشرق الأدنى إلى سلسلة من التحولات الاساسية، حيث تغير نمط حياة المجتمعات المتحركة من الصيد وجمع القوت إلى حياة الاستقرار الكامل في الزراعة وتربية الحيوانات. ويوصف هذا العصر بأنه عصر تقدم، إذ نشأت فيه العديد من التطورات التقنية والاقتصادية وكذلك الاجتماعية. وكانت العمارة إحدى السمات الجديدة، فهي كمقابل للمأوى البسيط الذي وفرته الملاجيء، أصبحت تدخل في تكوين وتركيب أنواع جديدة من المجتمعات.

يقسم العصر الحجري الحديث إلى مرحلتين أساسييتين هما :

١- العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار (Pre-Pottery Neolithic=PPN)

ويقسم إلى عصرين هما :

أ-العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار أ (Pre- Pottery Neolithic A= PPNA) ، يؤرخ من حوالي (٩٠٠٠-٧٦٠٠ ق.م) يمثله في العراق مواقع نمريك وقرمز درة وغيرها.

ب-العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار ب (Pre- Pottery Neolithic B= PPNB) ويؤرخ من حوالي (٧٦٠٠-٦٠٠٠ ق.م). يمثله في العراق مواقع المغزليةوجرمو وغيرها.

٢- العصر الحجري الفخاري (PN=Pottery Neolithic) ويؤرخ من من حوالي (٦٠٠٠- ٥٠٠٠ ق.م). تقليدياً كان تعاقب حضارات ما قبل التاريخ في شمال بلاد الرافدين في هذا العصر وفق الترتيب المتعارف عليه للثلاثي الحضاري الكلاسيكي، **حسونة، سامراء وحلف،** وهو تعاقب وضع في القرن الماضي ولا يزال معمولاً به إلى الآن. ويشير بعض الباحثين إلى دور حضاري فخاري مميز يسبق الأدوار الثلاث التي أشرنا إليها أعلاه، عرف بحضارة **ما قبل حسونة** مثلته مجموعة من المواقع منها أم الدباغية وتل سوتو وكول تبة وتلول الثلاثات في شمال العراق.

تبقى البيئة بمتغيراتها ذات تأثير كبير في بنية أي مجتمع ويمتد تأثيرها إلى جميع منافذ الحياة كالفن والميثولوجيا لا سيما أن منافذ الحياة تتأثر فيما بينها كتأثير العقائد والفن والمثولوجيا أو تأثيرها اجتماعيا بالمعطيات المتوافرة ، مثلا لولا وجود النهرين العظيمين في العراق دجلة والفرات لما ظهر وازدهر فن الفخار وكذلك النحت بهذا الشكل الذي يساوي أو يفوق جماليا ما وجد في أي منطقة مجاورة ، كما أن هذين النهرين مكنا الفرد العراقي القديم من استحداث نظام الري وشق القنوات كامتداد للأنهر لتنمية الزراعة . إذن اعتمدت قوة نفوذ الحضارة على ما يكمن في معطياتها وأهمها الماء ، لان الماء عنصر الخلق والإبداع الفكري الحضاري وبدونه تفقد الحضارة من قيمتها ، واستنادا إلى ذلك فان المرجعية المعرفية التي ترى الماء اصل الوجود الحضاري وقابليته في صهر العقل الإنساني والطبيعة ضمن نسق واحد أساسه نزعة فلسفية اغتنى بها الفكر العراقي القديم كتصور فلسفي علته اندماج الطبيعة والذات الإنسانية . وبفعل انصهار الفنون في الواقع الفكري الذي نعيشه توصلت الفنون إلى كينونتها بتصوير الكهنة وقسوة الحياة فصورت المعاناة تمثيلا لعزوف الفنان الرافديني عن الواقعية إلى التجريد والرمز في تصوير الأشكال الآدمية والحيوانية . ولان الفن يتسامى فوق مستوى الواقع والتعبير عن الجمال يقتضي أن يعلو عن الطبيعة والواقع والجمال هو تجلي المحسوس للفكرة.

وإذا ما أردنا التطرق إلى فنون ظهرت في العراق القديم اعتمدت على الطين فإننا سنجد كما" هائلا من المنحوتات الفخارية والتي اقترنت بفن الفخار وكذلك لابد من الإشارة إلى الرسوم التي نفذت على تلك الفخاريات وفن الرسم الذي ظهر مرادفا لفنون النحت والفخار في حضارة العراق القديم . ففي القرى الزراعية القديمة كقرية جرمو (*) نجد منحوتات طينية مجسمة لأشكال بشرية وحيوانية لم تكن جيدة التنفيذ وساذجة ، منها مجسمات أنثوية (آله الأم) التي ترمز إلى قوى الخصب والإنتاج في امتلاء الصدر وتضخيم البطن (في حالة الحمل) وكذلك منطقة العانة صوّرت كمثلث والساقان قصيران ممتلئان ينتهيان بقدمين صغيرتين . أما فن الرسم فقد عاصر الإنسان منذ كانت الكهوف ملاذه الدائم . تدفعه الفطرة والخوف لرسم تصوراته الذهنية بالسيطرة على الحيوانات ، كما توصل إلى معرفة الألوان البدائية التي لا تخلو من دقة التعبير وإضفاء الحركة والحيوية على الأشكال . وللرسم وظائف عقائدية وسحرية تمثلت في رسوم العصر الحجري القديم . واستمر فن الرسم بهذه الخصائص البدائية حتى العصر الحجري الحديث المعدني .

تقنية صناعة الفخار في العراق القديم :

تتفرد صناعة الفخار بأنها أحادية الخامة وهذه الأحادية يتخللها خليط من خامات متعددة بغية جعلها قابلة لتقبل مشكلات عملية الحرق وكذلك تطويعها لجعلها صالحة لتشكيل الأشكال المعقدة التركيب من الآنية الفخارية ، وإن تركيب الخامة في مجال فن الفخار ينتمي إلى فلسفة العلم فالخامة هنا عبارة عن تركيب كيمياوي يخشى تحطيمه في أية لحظة خلال عملية الحرق أو تشقق جوانب الأواني وتحطيمها الذي يتسبب عن تغيرات في التركيب الجزئي للكاؤلين وقد كان الحل بإدخال مواد أخرى غير مشاركة في التفاعلات الكيمياوية تحد من خطر التحطم ويقوي ويشد من تماسك بنية الأجسام الفخارية ، كما تحتوي الأطيان في تركيبها على شوائب طبيعية كالكلس وحجر الصوان والكوارتز والصدف ومركبات الحديد والنحاس والرماد البركاني وان معظم هذه المواد تترسب في تركيب الأطيان بتأثير العوامل الطبيعية . وإن كمية ومقدار هذه

المركبات يكسب الطينة لونها الطبيعي فالكلس يكسبها لونا أبيض وأكاسيد الحديد تجعل لونها مائل إلى الأحمرار أما النحاس فيعطيها لونا مائلا للأخضرار ، وتمتاز سطوح الفخاريات بشكل عام بوجود المسامات وهناك علاقة متبادلة التفاعل بين درجة المسامية ووظيفة الجسم الفخاري . والعوامل المتحكمة في درجة مسامية الآنية الفخارية هي درجة نقاوة الخامات والتقنيات المستخدمة في إظهار جماليات السطوح الفخارية مثل الدلك أو الطلاء بالمحلول الطيني ، إضافة إلى درجة حرارة الحرق وكذلك جو الحرق كأن يكون مؤكسدا" أو مختزاليا" بمعزل عن الأوكسجين . والمسامية الحقيقية للآنية هي نسبة حجم الفراغ الذي تشغله المسامات إلى الحجم الكلي للآنية أما المسامية الظاهرة فهي النسبة المئوية للمسامات المفتوحة في كل وحدة حجم إلى حجم الإناء الكلي ويمكن قياسها ومعرفتها في المختبر إذا عرف حجم المسامات المفتوحة والحجم الكلي لكسرة الفخار . ومن ناحية طرائق تشكيل الآنية الفخارية بشكل عام وفي العراق القديم بشكل خاص باعتباره سياقا بذلك فإنها كما في تقنيات الفنون التشكيلية الأخرى تبدأ بسيطة ومن ثم تتطور حيث كانت الطريقة اليدوية أكثر الأساليب شيوعا في تشكيل أجسام الآنية الفخارية ففي إحدى الطرائق اليدوية يتم فتح ثقب في مركز كتلة صغيرة من الطين ثم تبنى الجوانب بارتفاع تدريجي بفعل الضغط على المركز وترشق الجوانب ، وتستوجب تلك الطريقة نشاطا"حرفيا واستعدادا ومهارة لأصابع اليد . والطريقة اليدوية الأخرى تستند إلى التفكيك ثم البناء حيث تشكل أجزاء الآنية الأساسية مثل الرقبة والبدن والقاعدة كل على انفراد ومن ثم يتم تركيبها ، أما الطريقة الثالثة فإنها تستند إلى فن العمارة أكثر من انتمائها إلى فن الفخار ذلك لأنها تعتمد على بناء حبّال طينية على القاعدة وترتفع تدريجيا حتى بلوغ الارتفاع المطلوب .

وبسبب بدائية الوسائل المستخدمة في صناعة الفخار في العراق القديم والتي تعد أكثر الفنون بدائية منذ نشوئها وكانت كتلة الطين المراد تشكيلها توضع على قطعة من الحصير كي لا تلتصق على الأرض فينطبع نسيج الحصير على الطين مما حفز فكرة الإنسان في ابتكار فكرة الزخرفة والنقش على الآنية ، ودخلت الآلة في صناعة الفخار لكثرة الحاجة

لاستخدامها في الحياة اليومية حيث كان الفكر يبحث عن الوسائل التي تقلل من الجهد العضلي في عملية بناء الأجسام الفخارية فكان الحل بوضع كتلة الطين على مسند دائري الشكل يدور على محور يدار بواسطة اليد . وعرفت تلك الآلة بالدولاب البطيء الدوران (Tournette) وأخيرا تحقق الانتصار التكنولوجي باختراع الدولاب السريع حيث تحررت اليدان ذلك باستخدام القدم عوضا عنها في تدوير الدولاب وكان ذلك في عصر الوركاء . أما التقنيات الجمالية لسطوح الآنية الفخارية فتبدأ بعملية القشط (Turning) وتجري هذه العملية عندما يكون سطح الإناء رطبا بعد إنجاز عملية التشكيل ويتم ذلك باستخدام قطع حادة من الحجر أو الحصى والغاية منها تنظيم البناء الشكلي لأجسام الآنية الفخارية توصلا إلى نسق تشكيلي وتعقب عملية القشط عملية الدلك (Burnishing) وتحصل هذه العملية للسطوح الخارجية للآنية وفي بعض الأحيان للسطوح الداخلية والخارجية معا والغرض منها إكساب السطح مظهرا لماعا ومصقولا ، وتتم عادة باستخدام أداة ناعمة من الرخام أو الحصى ناعم الملمس ، وفي بعض الأحيان يطلى السطح الخارجي بطلاء المحلول الطيني (Slip) الذي يحضر من طينة منقاة من الشوائب بشكل كامل وتمزج بالماء حتى تكون محلولا رائبا" يكسى به سطح الإناء الخارجي أو الداخلي أو كلا السطحين معا" ليضفي على السطح مظهرا جميلا وملمسا ناعما ويكون مهيأ للرسم أو الزخرفة النحتية ، وهذا الطلاء أما أن يحضر من الطينة نفسها (Sel Slip) أو أن يحضر من طينة مغايرة وبلوّن مميز عن جسم الإناء الأصلي وقد يدلك الطلاء بعد الجفاف الجزئي لإكسابه مظهرا" براقا" . واستخدمت أصباغ عضوية تشتمل على عصير النباتات والكربون النقي التي تنتج لونا أسود إذا كانت حرارة الحرق واطئة ومدة الحرق قصيرة ، أما إذا طالت مدة الحرق وزادت حرارة الحرق فسوف يتخلف من احتراق الكربون رمادا أبيض ، وكذلك أصباغ معدنية تشتمل على أكاسيد الحديد وهي أوكسيد الحديد المائي و أوكسيد الحديديك و أوكسيد الحديد المغناطيسي التي تنتج اللون الأحمر واللون الأحمر المائل إلى الأسود ، وأكاسيد المنغنيز التي تنتج لونا" أسود مائلا إلى اللون البني عند حرق الآنية في جوّ مؤكسد ، ومن الممكن الحصول على عدة درجات

من اللون البني في درجات حرارة حرق مختلفة ، أما اللون الأبيض فمن الممكن الحصول عليه من كاربونات الكالسيوم مع الكاؤلين . ونستخلص مما تقدم بأن الألوان الشائعة في الفخاريات الرافدنية هي اللون الأسود واللون البني المائل إلى اللون الأسود بمختلف درجاته التي يمكن الحصول عليها من أوكسيد الحديد و أوكسيد المنغنيز وكذلك من عصير النباتات والكربون النقي ، واللون البني الغامق الذي ينتج من أوكسيد المنغنيز ، وألوان الأحمر والبرتقالي والأصفر والأرجواني بمختلف درجاتها التي يمكن الحصول عليها من استخدام أكاسيد الحديد ، واللون الأبيض الناتج من الكاؤلين ومن مركبات كربونات الكالسيوم . كما تعددت طرائق التلوين بتعدد الألوان المستخدمة على سطح الآنية الفخارية وأكثر الأواني الفخارية ملونة بلون واحد (Monochrome) وفي الغالب تلوّن باللون الأسود وقد تكون بعض الآنية مزدوجة اللون (Polytonal) وقد استخدمت الصبغة نفسها بدرجات لونية متفاوتة وينتج هذا التفاوت في الدرجة اللونية في أغلب الأحيان من اختلاف في كثافة اللون المضاف . ولقد أدت صعوبة السيطرة على التحكم بالحرارة في أثناء عملية الحرق إلى تنوع درجات اللون الأحادي ، وتستند هذه الظاهرة إلى التلقائية في جلب الانتباه لظاهرة تنوع اللون المتدرج بمعرفته مستندا في ذلك على التجريب شيئا فشيئا فعرف اختلاف كثافة اللون . أما الأدوات التي استخدمها العراقيون في التلوين فهي بسيطة وقد تكون فرشاة من شعر الماعز أو ريشة أحد الطيور وفي بعض الأحيان قطعة مدببة من القصب أو أغصان الأشجار . وبعد الانتهاء من عملية تشكيل الآنية الفخارية وتلوينها تجفف في الشمس ومن ثم تحرق كي تتصلب وتتحول من الطين إلى الفخار وتشير أقدم الأدلة إلى أن الآنية الفخارية كانت سمجة وخشنة الملمس وغير محروقة بل كانت تجفف في الشمس وكان بعضها يحرق بشكل أكوام في الهواء الطلق وهذا نوع من البدائية في الحرق الذي يفتقر إلى النضج ، وسرعان ما تنوعت الخبرة باستخدام التنانير البسيطة التي تستخدم في عمل الخبز لحرق الفخاريات ، وتطورت إلى الكوّر ومن ثم إلى أفران مخصصة لهذا الغرض وتحسنت حالة الحرق وظهر ذلك في فخاريات سامراء وفخاريات

حلف والعبيد حيث بدأ التحكم بدرجات حرارة الحرق ووصول الأفران إلى درجات حرارة عالية كما وجد في تلك الحقبة أفران صنعت من الفخار بشكل مستطيل يتألف من طبقتين الطابق الأسفل معد لوضع الفخاريات في حين زود الطابق العلوي بعدد من الفتحات لغرض مراقبة عملية الحرق . وتتميز بعض الفخاريات التي ظهرت في عصور قبل التاريخ في أماكن متفرقة من بلاد وادي الرافدين بأنها ذات سطوح سوداء أو رمادية وتشير مقاطعها إلى وجود طبقة سوداء اللون وبسمك قليل تغطي السطح ، أما الوقود المستخدم لحرق الفخاريات فانه كان من الحشائش اليابسة والأشواك وكانوا يفضلون التبن كونه يحترق بسرعة ويعطي حرارة عالية ويترك قليلا من الرماد في حين كان الخشب قليل الاستعمال في عملية الحرق لصعوبة جمعه وتقطيعه ، وكذلك استخدمت فضلات الحيوانات بعد تجفيفها في الشمس كوقود للأفران لسهولة جمعها وسرعة حرقها كما إنها تعطي حرارة عالية كذلك .